فكنتُ عزلاء لا يحميني غيرُ ردائي الأسود الملتصق بجسدي. لقد أخطأ المعرِّي حين قال: «تشاءب زيد إذ تشاءب خالد»؛ فالضحك تسري عدواه بأشد وأقوى، وبخاصة في مثل هذه المواقف. ولم أسْلم من نظراتٍ رمتني بها بعضُ النسوة وهن يبتسمن أيضاً!.

وقبل أن أستأذن مسعودة لأغادر المكان دسَّتْ بيدي ورقةً صغيرة كَتَبَتْها على عجل، وفيها رقم هاتفها، وهي تقول:

ـ «يجب أن تتصلي.. علينا أن نلتقي».

*

لكنّ مسعودة ضاعتْ مني من جديد مع إضاعتي القصاصةَ الصغيرةَ التي كنت أقبض عليها في ذلك اليوم المشهود وهي تلتفّ بعباءة عراقية لا يظهر منها غير وجهها... حتى عثرتُ على مسعودة أمس مصادفةً إذ لمحتها في الشارع تنتظر عند موقف سيارات الأجرة.

قُدتُ سيارتي عائدةً بها إلى الوراء وانحنيتُ لأُسمِعَها صوتي وأنا أناديها.

ـ «هذا يوم السعد يا مسعودة إذْ أحظى بك هَنا».

قالت عاتبةً محتدّة بلهجتها الجزائرية المحببة وهي تجلس إلى جواري:

ـ «ولكِ الحق في قول هذا؟ أما أعطيتكِ رقم هاتفي؟ أين أنت؟»

ـ «أضعته ـ قلتُ لها ـ والله أضعْته.. كان حظي عاثراً ذلك اليوم ـ هل تذكرين»؟ وضحكنا..

ـ «علي أي حال أين وجهتك؟ وأين سيارتك؟»

ـ «ها ها» ـ قالت وهي تهز رأسها ـ، «أما سيارتي فقد سرقوا لنا إطاراتها الأربعة ثم وضعوها لنا فوق الطابوق، في عقر دارنا وفي وضح النهار.. تلزمنا الآلاف لكي نعوِّضها، والأمور ليست كما كانت معنا، لذا أرجأنا ذلك، في الأقل كي لا نُلدغ من الجحْر مرتين. وأما وجهتي فإلى البيت، وإنْ لم أثقل عليكِ».

قلت لها:

ـ «تثقلين عليّ يا مجنونة؟ إنها فرصتي الثمينة كي أعرف أين تسكنين».

قالت:

ـ «في حي الأمجاد»!

شهقتُ حتى كدت أشرق:

ـ «حي الأمجاد؟! أصحيح ما تقولين؟ ومنذ متى؟ أنحن في منطقة واحدة إذن؟ هذا هو اللامعقول بعينه.. وكل هذه السنين، وأنا آخر من يعلم!؟»

قالت مسعودة بأسف:

ـ «ولكن سننتقل من هنا في ظرف أسبوعين فقط بعد أن قضينا فيه سبع سنوات».

قلت: «لماذا هل ضاق بكم»؟!

قالت: «لا أبداً. وجدنا شقة مريحة في شارع حيفا، فيها كل وسائل الراحة. بعنا بيتنا، واشتريناها، واستفدنا من الفرق. وبيني وبينك، هذا الحي الذي كان هادئاً أصبح لا يطاق.. ثم هذا الدويّ الذي يضرب رؤوسنا ليل نهار».

قلت: ـ «ماذا؟ أيُّ دوي؟؟!».

قالت مسعودة والدهشة على وجهها:

ـ «تقولين أيّ دوي؟! هذه الدوّامة الرهيبة التي تطوِّق المنطقة وكأنّ انفجاراً كونياً نزل صوب الكرة الأرضية واستقر فوق منطقتنا ولفّها.. الضجيج لا يهدأ، وبخاصة في ساعات الصباح. ألا يزعجك كل هذا الذي يحدث؟! أما أنا فقد حطّم أعصابي، ولم أعد أحتمل أكثر مما احتملت، لا أنا ولا أولادي، فقررنا الهروب.. قولي بالله عليك ما الذي يجري في حيّ الأمجاد؟؟! وما سبب كل هذا الضجيج؟؟!

بغداد

خطوات لها وقع

محمود سعيد

أكثر من عشر سنين مرت عليها في الغربة، وهي لم تستطع التعود على حرارة الجو ورطوبته. يُغَلِّف جسدُها بطبقة من الدبق تجعلها تتضايق، تتقزز، تستحضر آلام الغربة قسراً. تبدأ الوحدة تنفث سمومها بخبث بطيء، تستحيل ذراتٍ، تصبح هلاماً خانقاً يتفاعل مع هواءِ ماءِ حمّام ساخن يسود كل مكان، تلجأ إليه، يخنقها، يقتل أحلامها الصغيرة في رؤية مكان بارد جديد تسافر إليه. لماذا تقضي الرطوبة الساخنة على الهدوء في نفسها؟ للرطوبة علاقة ما بضيق النفَس، لكن ما علاقتها بضيق النفْس؟ تسحق صدرها بثقل لا يمكنها تحمله. ها هي تلجأ كالعادة إلى الماء البارد لتزيل لا جدار العرق وحسب، بل أيضاً ثقل الرطوبة التي استحالت كآبةً تكاد تزهق روحها.

ارتعشت، كان رشاش الماء بارداً، أول شيء فعله أنه غَسَل دموعها. أحسّتْ بالانتعاش يسري في بدنها. كانت تفكر بالبقاء مدة أطول تحت الماء البارد، لكنها سمعت الهاتف يرنّ. سارت بهدوء كي لا تزلق، وهي تلفّ جسدها بالمنشفة، والمياهُ تقطر من شعرها على أعلى ثدييها. كانت المكالمة خارجية. تدفّق صوتُ أخيها مرحاً وهو يسلّم عليها. سَرَتْ إليها السعادة، ضحكتْ: «استجلبْ لنا قليلاً من هواء إسبانيا البارد فتنعشنا»! ضحك أخوها: «لا يبيعون هنا بالونات هواء». «أنا وسعدون وعبير نشعر بالغربة، لا نستطيع السفر، لم يبق أحد هنا، كلهم سافروا، الحرّ شديد والرطوبة تخنق.. متى ستأتي؟»... ضحك أخوها: «لا تجعليني أبكي». قهقهتْ: «سلامة عينيك من البكاء». «اسمعي: أتعرفين اسماعيل صديقي»؟

تسمّرتْ عيناها في الأرض. أخذتْ تمسّد صدرَها العاري الذي لم يفقد انتعاشة برد الماء. كانت تجلس على السرير، أمام المرآة، وكانت خصل شعرها المبلّلة تتدلى على ثدييها فتدغدغها، وكانت قطراتُ الماء ما تزال عالقةً بذؤابات الشعر المبردة. انتعشت الذكريات، تنفّستْ نسائم الربيع على كورنيش شطّ العرب. أيُّ لحظات سعادةٍ انغمرتْ كالشلال! قفزتْ من مكانها آلافَ الكيلومترات نحو الشمال، اليوكالبتوس العملاق على كورنيش شطّ العرب يضوّع الكونَ برائحته القوية، أزهارُ شجيرات الدفلى، ورودُ الملكة الصفر الكبيرة، ورودُ الزينة، سفنُ الهند الخشبيّة تصطفّ أمام الشاطئ، نسائمُ الربيع اللذيذة تحملها فوق السحب.

قال لها أبوها: «انتظريني، سأوصلك، ما يزال هناك متّسع من الوقت للدوام». فقالت له: «أحب أن أتمشى عشرَ دقائق في الكورنيش قبل أن أصل إلى الطبقة (العبّارة)». كانت تشعر بسعادة لا توصف منذ أن تخرج من البيت حتى تصل إلى مدرستها. في الطبقة تنتظرها زميلاتها اللواتي يدرسْنَ معها ليعبرن النهر معاً. متى انتبهتْ إلى أن هناك خطواتٍ تسير وراءها؟ لم تَدْرِ، قرب بيت المتصرف الذي يقع في نهاية شارع الكنيسة، أحسّتْ بها. لم تجرؤ على الالتفات. كان الشارع خالياً في مثل تلك الساعة من الصباح. لم تر منذ خمس دقائق حتى تلك اللحظة سوى سيارةٍ واحدة تمرق. ومن بعد نحو مائة متر هناك شبحُ امرأة تظهر وتختفي بين الأشجار. أسرعتْ، فأسرعتِ الخطواتُ تتبعها، ثم أبطأتْ في مشيها فخفّفَتِ الخطواتُ وَقْعَها كذلك؛ كأنها تحرص على أن تُبقي مسافةً معيّنةً بينهما. تدفقت الدماءُ في وجنتيها، أحست بالحرارة تلهبهما، تُحرق جسدها، قفّ شعرها. لكنها تشجّعت.

التفتتْ: شاب أنيق أسمر، عيناه سوداوان واسعتان ضاحكتان، وسيم نحيف يسير وراءها على بعد بضعة أمتار. أخذ قلبُها يخفق في عنف. بدا الشاب بابتسامته الخفيفة بعيداً غيرَ مهتمّ بها، ينظر أمامه إلى شيء مّا لم يكن بالتأكيد هي. أيقنتْ أنه يتعمّد إهمالها، ومع ذلك ازداد اضطرابها. عَبَرتْ إلى الضفّة الأخرى؛ أصبح جدار الكورنيش الذي يفصل ماء النهر يلامس تنّورتها الزرقاء. أحسّتْ بنوع من الأمان، وهي تشاهد زميلتها «عزيزةً» تسير أمامها وإن كانت على بعد، إلا أنها في وقت الحاجة ستكون قادرة على نجدتها إذا هجم عليها. هَدَأ روعُها بعضَ الشيء، لكنها أحست به يَعْبر الشارع وراءها. اضطربت من جديد. يجب عليها أن تفعل شيئاً، أيَّ شيء، تصرخ، تستغيث. لكنها لم تفعل. كانت تسير حذو المراكب الهندية، خطواتُها مرتعشة وقلبُها يخفق بشدة. كانت المراكب مفعمةً بالحركة والحياة، تضجّ بأجساد دكناء. لن يستطيع أن يؤذيها أمام كل هذه الأعين. اطمأنّتْ. ظلّ يسير خلفها، وظلت تخاف أن تلتفت نحوه. تنفّستِ الصعداء؛ وصلت برّ الأمان؛ كانت هناك معلمتان من زميلاتها وصلتا قبلها. لاحظتْ «عزيزة» اضطرابَها. سألتها باهتمام، فتدفقت الكلماتُ من شفتيها تشرح الأمر. «لكنه لم يتعرّض لك»؟ «لا».. «لم يقل أي كلمة..»؟ «لا».. «إذاً.. فلِمَ الخوف..»؟ «كان الشارع خالياً، وخشيتُ أن يمسكني، أن يؤذيني». «أيتها المجنونة..! أيمسك أحد فتاة في الشارع..؟»

نسيت الأمر، بل إنها لم تتذكره عند الغداء حين تجتمع يومياً مع أمها وأخواتها. لكنها في الأيام التالية، طفقتْ تحسّ بالخطوات تتبعها. من أين يخرج، أين يختبئ؟ لم تدرِ، كل الذي تعلمه أنها ما إن تتجاوز بيتَ المتصرّف حتى تسمع وَقْعَ الخطوات المألوفة، إيقاعَها الرتيب. لكنها لم تنظر إليه ثانيةً. ظل الانطباع الأول عنه في مخيلتها: أسمر، أنيقاً، وسيماً، ذا عينين باسمتين سوداوين. كان حجمه يكبر يومياً بهالة من تعليقات الزميلات: «الأسمر الذي وجد ظلّه»، «المحبّ الصامت».

لكنه بعد نحو شهر اختفى، اختفى بعد أن اعتادت عليه. وباختفائه فقدتْ ظِلّها لا ظلّه، فقدتِ البهجةَ وتسليةَ التعليقات التي عاشت حلاوتها بكل تفصيلاتها. آنذاك بدأت تعليقاتٌ معاكسة: «ذهب ولم يعد»، «ذهب مع الريح»، «يا خسارةَ قصةٍ انتهت في فصلها الأول»... وكانت تضحك وقلبها يدمى.

بعد ذلك، ولأيام لا تحصى، كانت خطواته تدقّ الأرض

برفقٍ في داخلها، ما إن تتجاوز بيت المتصرف، ترافقها في سيرها، تُسرع وتبطئ وتتوقف كما تفعل هي، حتى الطبقة. لكن ذلك لم يكن إلا وهماً؛ لم يظهر من جديد. وحينما تفكر في سبب انقطاعه لا تقع على العلّة قطّ. أكان يوم اختفائه استثناءً في حياتها؟ تألمتْ بعمق، لكنها لم تدع أحداً يطّلع على جرحها، أيٌّ أحد. قال لها أخوها: «سأرافقك حتى بيت المتصرّف، ومن هناك سأذهب إلى القنصلية لأجل التأشيرة»، ثم ودّعها. سارت وكلها آذان صاغية، انتظرتْ أن تسمع الخطوات ولكنها لم تسمع شيئاً، لا في ذلك اليوم ولا في الأيام التالية. كانت وحدها تسير، تتلفت علّها تراه. اختفى. أرأى أخاها وخشي من المجابهة؟ هل انسحب من المعركة قبل أن تقع؟ ليتها عرفتْ لماذا انسحب؟ لماذا اختفى فجأة كما ظهر؟. كان السؤال يحيا في الليل حينما تأوي إلى فراشها، يطرق مسامعها برنينٍ صاخبٍ ذي إيقاع مؤلم. كم بلل الدمعُ وسادتها! ثم فجأة أخذت تضحك على نفسها. أيمكن أن يكون قد أثّر فيها إلى هذا الحد؟ إنها لم تتبادل معه أيَّ كلمة، بل لم تلتق عيونهما سوى مرات معدودات؛ كل ما كان بينهما رنينُ صوتِ أقدامٍ ذاتِ إيقاعٍ رتيبٍ على أسفلت أسود. ترى هل بقيتْ آثار قدميه على أسفلت الشارع؟ يا لتفاهتها!

وبعد أن تزوجتْ بعشر سنين، وحين عاد أخوها من الدراسة في الخارج، سمعتْ غيرَ مرة أنه يتبادل الدعوات مع صديق كان يدرس في الخارج معه، وتردد اسم إسماعيل عدة مرات. ثم فجأة رأته، كما ظهر من قبلُ في الكورنيش، لكنه هذه المرة مع زوجته الأجنبية على العشاء عند أخيها. آنذاك بدا رجلاً لا يمتّ إلى الماضي بأي صلة، حتى إنه لم ينظر إليها أيَّ نظرة ذات معنى. لم تهتز لمرآه قط، لكنها أحست بالذكرى تدفع بالدماء إلى وجنتيها. كانت الذكرى منفصلةً عنه، تعود إليها وحدها، ملْكها هي لا يشاركها فيها أحدٌ حتى هو. لكنها ودّتْ من كل قلبها ـ كما في آخر صفحة من انفعالاتها السابقة ـ أن تعرف لماذا انسحب فجأة. أدارت ظهرها لكي لا تلتقي عيونهما.

وبعد مدة طويلة أخرى حينما سمعتْ باستشهاده حزنتْ بعمق، لكنّ حزنها لم يرافقها طويلاً كما رافقها السؤالُ الملحاح ذو الرنين الصاخب الذي يدق صدغها بقوة فيكاد يخرج عينيها: ما سبب اختفائه فجأة...؟

*

«ذكرى.. أما زلتِ على الهاتف.. ما لك سكتتِ..»؟

ضحكت: «إني أسمعك ماذا تريد أن تقول..؟ ابن إسماعيل..؟ نعم، ماذا به؟». في تلك الحفلة في بيت أخيها وعندما واجهته لأول مرة تركز انتباهُ الجميع على ابنه عماد، ابن إسماعيل. كان أسمرَ وسيماً يشبه أباه في كل شيء، إلا أن عينيه كانتا خضراوين كعيني أمه لا سوداوين كعيني أبيه. أخذ الطفل يلعب مع ابنها، وانسجما حتى إنّ ابنها طلب منها في اليوم التالي أن تأخذه إلى بيت إسماعيل ليلعب مع ابنه. بصعوبة أقنعت ابنها باستحالة ذلك. «ذكرى.. أين أنت؟ أتسمعينني؟». ضحكتْ من جديد: «إني أسمعك، أتذكّر ابنه، لكني نسيت اسمه». «عماد». «نعم. عماد.. ما به»؟. «عماد ابن إسماعيل سيتصل بك اليوم أو غداً». «من أين يتصل»؟ «سيكون قريباً عليك؛ في دبي». «ولماذا جاء»؟. «أهذا سؤال يا ذكرى؟ لماذا أخرجتِ ابنك وأرسلته إلى أوربا؟. أيوجد غير النجاة بالروح؟!»

عندما كان يلعب مع ابنها بَدَوا وكأنهما في السن نفسها. ابنها الآن في التاسعة والعشرين؛ أي أنه أكبر من أبيه عندما لعب لعبة مطاردتها. ترى ألَهُ وسامة أبيه؟ «أأقطع المكالمة وأعود لأتصل بك من جديد؟ لماذا؟ ما هذا الانقطاع؟ منكِ أو من خطوط الهاتف؟ في الصيف تؤثر أشعةُ الشمس على الأقمار الصناعية. ذكرى؟». «نعم إني أسمعك». سمعت صوت ضحكته من بعيد. ضحكتْ هي الأخرى: «لكني لم أفهم ماذا تريد؟». «اسمعيني... تعلمين أنه ليست له قدرة على العيش في فندق، أبقِهِ عندكِ، سأجيء بعد أسبوع، وجدتُ له عملاً، أتريدين أن أكلم سعدون؟... ذكرى... بدأت الخطوط ترتبك من جديد، سأتصل بك مرة أخرى». «لا.. لا.. أسمعك.. لا حاجة للاتصال بسعدون، سأخبره أنا».. «أترينه سيوافق؟» «لِمَ لا..؟ في أمان اللّه...».

لشد ما تطوي الأيام صفحاتها بلامبالاة، ما هذا العبث؟ كاد يُمْحى من القلب، فلِمَ يعود الآن؟ لم تدرِ كم بقيت السماعة في يمناها، لكنها كانت ما تزال تمسّد ثدييها العاريين. ما زالت طراوةُ الماء البارد تنعش إهابها، وما زالت الخطوات في الكورنيش تتبعها، وما زال وقعُ تلك الخطوات يكهربها، يشلها خوفاً ونشوة معاً، وما زالت تحسّ بالدماء تتدفق في وجنتيها وكل جسدها. نعم.. ما زالت تلك اللحظات المحتدمة تلهب مخيلتها بسؤالٍ لا جواب له: لماذا اختفى وعلى حين غفلة؟

الإمارات العربية